الفصل الثالث
سجع الكهّان وغيرهم

السجع لغة السجع في الاصطلاح الكهاد أشهر الكهاد أسلوب الكهاد في السجع وأثره

السجع في اللغة الصوت المتوازن. قال أحمد بن فارس: «السين والجيم والعين أصلٌ يدلُّ على صوت متوازن. . ويقال سجعت الحمامة إذا هدرت». وفي الاصطلاح «الكلام المقفّى. . وسجّع تسجيعاً: تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن. وصاحبه سجّاعة، وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه، كأنّ كلّ كلمة تشبه صاحبتها. قال ابن جني: سُمِّي سجْعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله. . والأسجوعة: ماسجع به»

والسجع في الجاهلية ضرب من الكلام التزم فيه الكهّان السجع، لايفارقونه وربّما ورد في كلام غيرهم كالسجع في بعض الخطب والوصايا والأمثال. والكهّان ـ كما تصورهم أخبار العصر الجاهلي ـ طائفة من الناس كانت تدّعي التنبؤ ومعرفة المغيبات. وكلّ كاهن كان يدّعي أنّ له رَئِيّاً أو تابعاً من الجنّ يسترق له السمع، وينضو حجب الغيب، ويستطلع ماسيكون. وكان العربي الجاهليّ يصدق الكاهن أحياناً، ويفزع إليه يستشيره في المعضلات، ويستنصحه في جلائل الأعمال كعقد حلف، والكشف عن قاتل، وإشعال حرب ويحتكم إليه في خصومة أو منافرة، أو تعبير رؤية. وقد يستبق الكاهن قومه فيتنبأ لهم بما سيقع، فيحذرهم كارثة تهددهم، أو غزواً يدبّر لهم. وحكم الكاهن في أغلب الأحوال كان مقبولاً لايردّ، وقضاؤه كان نافذاً لاينقض، فإذا شاعت للكاهن شهرة، وأثرعن تنبئه الصدق في بعض المواقف اتسع نفوذه، وجاز حدود القبيلة التي ينتمي إليها.

ومن أشهر الكهان سطيح الذئبي، وشق بن مصعب الأنماري، والمأمور الحارثي، وخنافر الحميري، وعوف بن ربيعة الأسديّ الذي حرّض قومه على الثورة بحجر بن الحارث وعلى قتله ووزراء الكاهنة.

وقد رويت عنهم أقوال أكثرها مصنوع، يشيع فيه إلى جانب السجع غريب اللغة، وحلف الأيمان بكلّ مافي الكون من مظاهر القوة المستورة والظاهرة، ومايحيط بالأرض من كواكب ونجوم. وهذا الأسلوب من الكلام كان يجعل لهم سلطاناً سحرياً

على الدهماء. وإليك فقرات من سجع الكهان نختارها من خبر طويل، رواه صاحب الأغاني: «كان قسيّ بن منبه مقيماً باليمن، فضاق عليه موضعه، فأتى الطائف. . فأتى إلى الظرب العدواني. . فوجده نائماً تحت شجرة فأيقظه، وقال: من أنت؟ قال: أنا الظرب، قال: علي أليّة إن لم أقتلك أو تحلف لي لتزوّجني ابنتك. ففعل، وانصرف الظرب، ومشى معه، فلقيه ابنه عامر بن الظرب، فقال: من هذا يأأبت؟ فقص قصته. قال عامر: للّه أبوك لقد ثقف أمره، فسمّي يومئذ ثقيفاً. قال وعُيّر الظرب بتزويجه قسياً، وقيل: زوجت عبداً فسار إلى الكهان يسألهم، وانتهى إلى شق، وكان أقربهم منه. فلمّا انتهى إليه قال: إنّا قد جئناك في أمر فما هو؟ قال شق: جئتم في قسي وقسي عبد إياد، أبق ليلة الوادي، في وج[1] ذات الأنداد، فوالى سعد اليفاد[2]، ثمّ لوى بغير ميعاد.

ثم توجهوا إلى سطيح الذئبي. . فقالوا: إنا جئناك في أمر فما هو؟ قال سطيح: جئتم في قسي وقسي، من ولد ثمود القديم، ولدته أمّه بصحراء تريم[3]، فالتقطه إياد وهو عديم، فاستعبده وهو مليم».

ومن سجع الكهان ماخاطبت به زبراء الكاهنة بني رئام إذ قالت: «واللوح الغافق والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق[4] إنّ شجر الوادي ليأدو[5] ختْلاً، ويحرق أنياباً عُصْلاً. وإنّ صخر الطود لينذر ثكلاً، لاتجدون عنه معلاً»

ولم يكن أسلوب السجع قاصراً على الكهّان، فقد شاع في كلام العائفين كقول سعد بن زيد مناة يخاطب جندب بن العنبر: «أما والذي أحلف به لتأسرنك ظعينة، بين القرية والرقينة، وقد أخبرني طيري أنه لايغنيك غيري»

وشاع في المحاورة بين الناس كالمحاورة بين معبد بن زرارة وعمرو بن هند. فقد أحبّ معبد بن زرارة أن يعتذر لعمرو بن هند ويستغفره لقومه، فركب إليه بعد يوم أواره، وانتظر خروجه إلى الصيد، فلمّا رآه داناه واعترضه في الصحراء، يريه أنه قادم من سفر فقال له عمرو: «من أين أقبلت أيها الراكب؟ قال: من بلد سماؤه غبراء،

(١) وج: واد بالطائف.

(٢) أحد بطون العرب.

(٣) موضع.

(٤) المزن الوادق: السحاب الماطر.

(٥) الأدو: الخديعة وكذلك الختل.

وأرضه قشراء[1]، وتربه مور[2]، وماؤه غور، وأهله يتكنفون بالغثاث[3]، ويتقرمصون في البراث[4]. فالطفل مرموع[5]، واليافع مقصوع[6]، فلا مسكة لفقير، ولا صمتة لصغير، ولا حراك لكبير. .»

وهـذه النمـوذجات من السجع ـ وإن اختلفت موضوعاتها ـ متفقة الصياغة، فأصحـابهـا يعتمـدون «ضروبـاً من الـزخـرفة والتنميق والتحبير والتجويد والإيقاع المـوسيقي، ليكـون الكـلام أدخـل في النفس، وأبعـد أثراً». وقد يمزجون السجع بالازدواج، وهو قريب من السجع في إيقاعه الصوتي. ومن أمثلة ذلك حديث سعد بن مالك بن ضبيعة وقد وفد على النعمان الأكبر، فسأله النعمان عن أرضه، هل أصابها غيث يحمد أثره، أويروي شجره؟ فقال سعد: «أما المطر فغزير، وأمّا الورق فشكير[7] وأما النافذة فساهرة، وأما الحازرة فشبعى نائمة. وأما الرمثاء فقد امتلأت مساربها، وابتلت جنائبها. .»

وأضافوا إلى السجع ألواناً من التصوير محكمة الصنعة، بارعة الصقل، فجاء نثرهم قطعاً فنية آسرة. وصف علبة بن مسهر الحارثي أعمامه في وفادته على ذي فائش الحميري، فقال: «. . فأمّا زياد فما استلّ سيفه مذ ملكت يده قائمه إلا أغمده في جثمان بطل، أو شوامت جمل. وكان إذا حملق النجيد[8]، وصلصل الحديد، وبلغت النفس الوريد، اعتصمت بحقويه الأبطال اعتصام الوعول بذرى القلال، فذاد عنهم الأبطال ذياد القروم[9] عن الأشوال»[10].

ولا يخفى مافي هذا النثر المسجّع المصوّر من سحر يقربه من الشعر. ولو طاف به طائف من إيقاع الخليل بن أحمد لمادفعه عن الانتماء إلى الشعر دافع. وهذا يعني أن في رأي من رأى أن النثر المسجوع مرحلة من الشعر الموزون المقفى حظّاً من الصدق.

(١) لانبت فيها
(٢) متحركة، مضطربة.
(٣) يتبلغون بالقليل الهزيل.
(٤) يستدفئون بالرمل.
(٥) مصفر الوجه.
(٦) ذاهب البهاء.
(٧) مغزر اللبن.
(٨) اشتد الكرب.
(٩) الفحول.
(١٠) جمع الجمع والشول: الناقة الحامل أو التي أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر.

الفصل الرابع

الوصايا

الوصايا لون من ألوان الأدب التربوي، عرفها الأدب العربي القديم، وتناقلها الحفظة والرواة، وجمعها المؤلفون في كتب منفردة، أو فصول وأبواب من كتب الأدب العامة.

ومن الكتب التي انفردت بروايتها كتاب (تاريخ العرب الأولية) للأصمعي عبد الملك بن قريب (ت: ٢١٦ هـ) وفي هذا الكتاب وصايا قحطان والملوك من أبناء هود. وكتاب (الوصايا) لدعبل بن علي الخزاعي (ت: ٢٤٦ هـ) وكتاب (الوصايا) لأبي حاتم السجستاني (ت: ٢٤٨ هـ) وكتاب (وصايا الملوك وأبناء الملوك) للوشّاء ... .

والوصايا يوجهها الموصي الى أهله وعشيرته حينما يحسّ دنو أجله، والغاية منها النصح والإرشاد إلى الطريق القويم، والترغيب في التزام الفضائل والتخلق بالأخلاق الكريمة. وتنطوي على مقدار كبير من الحكم والأمثال، وتتضمن خلاصة الخبرة في الحياة، وتعبر عن نظرة الموصي إلى الدنيا وأحوالها، ورأيه في البشر وطباعهم وسلوكهم.

ورأى بعض الباحثين أن الوصايا لاتخلو من الوضع والانتحال لأن نقلها يعتمد على المشافهة والحفظ لا على التدوين. لكن بعض الوصايا ـ كما ذكر في بعض الكتب ـ كان على شكل رسالة يكتبها الموصي، ويرسلها إلى الموصى إليه، ومن الوصايا المكتوبة وصية أكثم بن صيفي التي وجّهها إلى طيّء، ووصيته إلى النعمان بن خميصة البارقي. وفي الوصية الأولى ـ وهي طويلة مشهورة ـ ينصح أكثم لبني طيّء بالتقوى، وصلة الرحم والعناية بالخيل والإبل، وبأمور أخرى فيقول: «أوصيكم بتقوى اللّه، وصلة الرحم. وإياكم ونكاح الحمقاء، فإن نكاحها غرر، وولدها ضياع. وعليكم بالخيل فأكرموها، فإنها حصون العرب. ولاتضعوا رقاب الإبل في غير حقها، فإن فيها ثمن الكريمة، ورقوء الدم، وبألبانها يتحف الكبير، ويغذى الصغير. والعدم عدم العقل لا عدم المال. ومن عتب الدهر طالت معتبته، ومن رضي بالقسم طابت معيشته، وآفة الرأي الهوى..».

الكتب المؤلفة في الوصايا — غرض الوصايا — رأي بعض الباحثين — وصية أكثم بن صيفي

ومن وصايا العرب وصية الحارث بن كعب إلى بنيه وقد حضرته الوفاة. وفي هذه الوصية يقول: «يابَنِيَّ عليكم بهذا المال، فاطلبوه أجمل الطلب، ثم اصرفوه في أجمل مذهب، فصلوا به الأرحام، واصطنعوا منه الأقوام، واجعلوه جنة لأعراضكم، تحسن في الناس قالتكم..»

وربما كانت الوصية توجيهاً تربوياً يعلّم فيه الكبيرُ الصغيرَ، والمجرِّبُ المتمرِّسُ بأمور الدنيا الغريرَ الناشىءَ، ومن أشهر الوصايا التربوية وصية أمامة بنت الحارث التي أودعتها تجاربها في الحياة، وودّعت بها ابنتها أمّ إياس حين زفتها إلى زوجها، ومن هذه الوصية: «أيْ بنية، إن الوصية لو تركت لفضل في أدب تركت ذلك منك، ولكنّها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.. أيْ بنية، إنّك فارقت الجوّ الذي منه خرجت، وخلّفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه. فأصبح بملكه إياك عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أَمَةً يكنْ لك عبداً وشيكاً. يابنية احملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً: الصحبة له بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعاهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولايشتم منك إلّا طيب الريح..» وتُعدّ هذه الوصية من أجمل الوصايا وأرقاها وأرقّها وأحرصها على العلاقات الإنسانية الكريمة بين الزوجين.

وليس في الوصايا خصائص واضحة تميزها من أنواع النثر الأخرى. فهي فرع من فروع النثر الجاهلي تحمل خصائصه الفكرية والفنية.

فمن الناحية الفكرية ينعكس في الوصايا الفكر الهادىء العميق، والحكمة الرزان، والواقعية في النظر إلى مشكلات الحياة، واستنباط المعاني من التجربة الحية لا الفلسفة النظرية.ومن الناحية الفنية تتسم الوصايا بالجمع بين اللغة المرسلة والأسلوب المسجع، والجمل القصيرة المتوازنة، وضعف الروابط بين الأفكار والاعتماد على الإنشاء من أمر ونداء ونهي.

وصية الحارث بن كعب

وصية أمامة بنت الحارث

سمات الوصايا